استدراك وتعليق

ونظرة إلى تاريخ بني العباس

— ٩ —

القادر بالله [١] :

مولده سنة ٣٣٦ ـ خلافته سنة ٣٨١ (٩٩١ م) ـ وفاته سنة ٤٢٢ (١٠٣١ م) .

لم يُروَ له شعر . غير أنه كان ينشد أبياتاً في الزُهد منها :

سبق القضاء بكل ما هو كائنُ ... واللهُ يا هذا لرِزقك ضامنُ

تُعنى بما يَفنى وتترك ما به ... تَغنى كأنك للحوادث ضامن

واعلم بانك لا ابا لك في الذي ... اصبحتَ تجمعه لغيرك خازن

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر . أمه أَمَة اسمها : دِمنة ، وقيل تَمني .

كان في غاية الديانة والعبادة ، والفضل والسيادة : كثير الصدقات ، حسنَ الطريقة . صنف كتاباً في الرد على القائلين بخلق القرآن . عدّه ابن الصلاح في علماء الشافعية ، وذكره في طبقاته .

طالت خلافته حتى بلغت إحدى وأربعين سنة وأربعة أشهر .

تفقه على العلاّمة أبي بشر الهروي وصنف كتاباً في الأصول .

ومن دلائل ما كان عليه من مكارم الأخلاق ، ومن مخالفته لما درج ـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يا عامر الدنيا ! اتعمرُ منزلاً لم يبقَ فيه مع المنية ساكن
الموت شيء انت تعلم أنه حق وانت بذكره متهاون
ان المنية لا تُؤامِر مَن أتت في نفسه يوما ولا تستأذن (١)

ـــ عليه الخلفاء ، ولا سيما العباسيين ، من إساءة الخليفة القائم إلى سلفه في الخلافة ، أنه لما جيء إليه بالطائع ، أنزله حُجْرة من خاص حُجَره ، ووكّل به من ثقاته مَن يقوم بخدمته ، وأحسن ضيافتَه . وكان يطلب الزيادة في الخدمة ، فيُؤمر له بذلك .

وأرسل إليه يوماً القادر عَدَسية ، فقال : ما هذا ؟ قالوا عَدَس وسلِق ! قال : أكل أبو العباس من هذا ؟ قالوا نعم !

قال : قولوا له عني . أما وقد أردت أن تأكل عدسية ، لِمَ اختفيت ؟ فما كانت العدسية ، تعوزك ، ولِمَ تقلدت هذا الأمر ؟

فأمر حينئذ القادر أن يُفرَد له جاريةٌ من طَبّاخاته تطبخ له ما يلتمسه كل يوم . فأقام على هذا إلى أن توفي .

وكان القادر يخرج من داره في زي العامة . وإذا وصل إليه حال ، أمر فيه بالحق . (تقول الحال هنا بمعنى الشكوى ومنه أُخذ (عرضحال) .

(١) قال أبو الحسن الأيجري : أرسلني بهاء الدولة في رسالة إلى القادر ، فسمعته ينشد هذه الأبيات . فقلت له : الحمد لله الذي وفق أمير المؤمنين لانشاد مثل هذه الأبيات .

فقال : بل لله المِنة إذ ألزمنا بذكره ، ووفقنا لشكره !

ألم تسمع قول الحسن البَصري في أهل المعاصي : « هانوا عليه ، فعصَوه ، ولو عزوا عليه لعَصَمَهم »

يقول بعض من كتب عنه من المؤرخين : إنه في أيامه تراجع وقار ـــ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ـــ الدولة العباسية ، وغا رونقها ، وأخذت أمورها في القوة ، وكانت الخلافة قبله قد طمع فيها الترك والديلم . فلما وليها القادر ، أعاد جدتها ، وجدد ناموسها ، وألقى الله هيبته في قلوب الخلق ، فأطاعوه أحسن إطاعة وأتمها .

حتى قال فيه الشريف الرضي :

شرفُ الخلافة يا بني العباس اليومَ جدّده أبو العباس
ذا الطودُ ابقاه الزمانُ ذخيرةً مِن ذلك الجبل العظيم الراسي

ليس من شك أن القادر كانت له حرمة في النفوس . قد يكون مردها إلى أمور منها :

آ ـ أن الترك والديلم الذين كانوا بلاء الخلافة ، وقتلة الخلفاء ، كان قد ضعُف في عهد القاهر أمرهم ، فزال عن الدولة خطرهم ، وسكنت ثوراتهم المتعاقبة . كما أن القرامطة كان قد انتهى أمرهم أو زال .

ب ـ مسلكه المعتدل ، وتعففه عن الأموال ، وتحرجه من سفك الدماء .

ج ـ ما كان عليه من تدين وزهد ، وحسن سيرة ، أوقع له في النفوس حرمة وهيبة .

أما أن يكون أعاد للدولة العباسية وقارها ، وأنه جعل أمورها تأخذ في القوة ، وأنه كان الذخيرة « من ذلك الجبل العظيم الراسي » .

فمحاباة مؤرخ ، ومغالاة شاعر ، قد يشفع لهما في بعض ما قالاه : أنهما قاسا الامور بمـا كان قبله . وإلاّ فالحكم كان للملوك ، وكانت الخلافة في عهده ـ كما كانت في عهد أكثر الخلفاء المتأخرين ـ شبه منصب ديني ، كمثل البابوية في يومنا هذا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القائم بأمر الله (١) :

مولده سنة ٣٩١ — خلافته سنة ٤٢٢ (١٠٣١ م) — وفاته سنة ٤٦٧ (١٠٧٥ م) .

هو أبو جعفر عبد الله بن القادر . أمه أم ولد أرمنية وقيل رومية اسمها « بدر الدُجى » وقيل « قطر النَدى » .

(١) كان القائم من أفاضل خُلفائهم وصُلحائهم . وطالت مدته في الخلافة . وزاد به وقار الدولة ، وقت قوتها — وفي أيامه انقرضت دولة بني بويه ، وظهرت دولة بني سلجوق .

يقول ابن الأثير : كان القائم ورعاً ديناً زاهداً عالماً ، قويَّ اليقين بالله ، كثيرَ الصدقة والصبر . له عناية بالأدب ، ومعرفة حسنة بالكتابة ، ولم يكن يرتضي أكثرَ ما يُكتب من الديوان ، فكان يصلح فيه أشياء ، وكان مؤثراً للعدل والاحسان ، وقضاء الحوائج ، لا يرى المنع من شيء يُطلب منه .

قال محمد بن علي بن عامر الوكيل :

دخلت يوماً إلى المخزن . فلم يبقَ أحد إلاّ أعطاني قِصة ، فامتلأت أكمامي منها . فقلت في نفسي : لو كان الخليفة أخي ، لأعرض عن هذه كلها . فألقيتها في بِركة . والقائم ينظر ، ولا أشعُر . فلما دخلت إليه أمر الخدم باخراج الرِقاع من البِركة . فأخرجت . ووقف عليها ووقّع فيها بأغراض أصحابها . ثم قال لي :

يا عامي ! ما حملك على هذا ؟

قلت : خوف الضجر منها .

فقال : لا تعُدْ إلى مثلها ! فانّا ما أعطيناهم من أموالنا شيئاً ، انما نحن وكلاء .

ولم يزل أمره مستقيماً إلى أن قُبض عليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ـــ وكان السبب في ذلك : أن أرسلان التركي البساسيري ، كان قد عظُم أمره ، واستفحل شأنه ، لعدم نظرائه ، وانتشر ذكره ، وتهيبته أمراء العرب والعجم ، ودُعي له على المنابر ، وجبى الأموال وخرّب القرى . ولم يكن القائم يقطع أمراً دونه . ثم صح عنده سوء عقيدته ، وبلغه أنه عزم على نهب دار الخلافة ، والقبض على الخليفة . وهاجم البساسيري بغداد ، ومعه الرايات المصرية . وقبض على الخليفة القائم ، وسيّره إلى غانة وحبسه بها . ثم غُلب البساسيري ، وظُفر به ، فقُتل . وأعيد الخليفة القائم من محبسه في غانة إلى بغداد ، فدخلها بأبهة عظيمة ، والأمراء والحجاب بين يديه .

ولما رجع القائم إلى داره ، لم ينم بعدها إلا على فِراش مُصلاّه ، ولزم الصيام والقيام ، وعفا عن كل من آذاه ، ولم يسترد شيئاً مما نُهب من قصره ، إلا بالثمن . وقال :

هذه أشياء احتسبناها عند الله . ولم يضع رأسه بعدها على مِخدّة . ولما نُهب قصره لم يوجد فيه شيء من آلات الملاهي .

وروي : أنه لما سجنه البساسيري كتب قصته ، وأنفذها إلى مكة . فعُلقت في الكعبة وفيها : « إلى الله العظيم من المسكين عبدِه . اللهم انك العالم بالسرائر ، المطلع على الضمائر . اللهم انك غني بعلمك واطلاعك على خلقك ، عن اعلامي . هذا عبد قد كفر نِعَمك وما شكرها ، والغى العواقب وما ذكرها . أطغاه حِلمك حتى تعدى علينا بغياً ، وأساء إلينا عفواً وعدواناً . اللهم قلّ الناصر ، واعتز الظالم ، وأنت المطلع العالم ، والمنصف الحاكم . بك نعتز عليه ، وإليك نهرب من يديه . فقد تعزز علينا بالمخلوقين ، ونحن نعتز بك . وقد حاكمناه إليك ، وتوكلنا في انصافنا منه عليك ، ورفعنا ظُلامتنا هذه إلى حَرمك ، ووثِقنا في كشفها بكرمك . فاحكم بيننا بالحق ، وأنت خير الحاكمين » . ـــ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المستظهر بالله (١) :

مولده سنة ٤٧٠ — خلافته سنة ٤٨٦ (١٠٩٤ م) — وفاته سنة ٥١٢ (١١١٨ م) .

هو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله .

من شعره :

اذاب حرُّ الهوى في القلب ما جمَدا ... لما مددتُ الى رسم الوداع يدَا

وكيف اسلُك نَهج الاصطبار وقد ... ارى طرائقَ في مَهوى الهوى قِددَا

— يقول السيوطي : « زوج الخليفة القائم بنته لطغرلبك ، بعد أن دافع بكل ممكن ثم لان لذلك بوغمٍ منه ، وهذا أمر لم يفعله أحد من ملوك بني بويه ، مع قهرهم الخلفاء ، وتحكمهم فيهم .

قلت : والآن زوج خليفة عصرنا ابنتَه من أحد مماليك السلطان ، فإنا لله وانا إليه راجعون .

(١) كان المستظهر لين الجانب ، كريم الأخلاق . يحب اصطناع الناس ، ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات ، لا يرد مكرُمة تطلب منه ، كثير الوثوق بمن يوليه ، غير مصغٍ إلى سعاية ساعٍ .

غير أن أيامه كانت مضطربة ، نجمت فيها الفتن ، وكثرت الحروب .

استولى العبيديون على بقاع من الشام وانفجرت ثورات الباطنية . وجاءت الفرنجة ، فما زالت تأخذ البلاد : بلدةً بلدة ، وينهبون ويستبيحون ما يستولون عليه ، إلى أن سقطت القدس في يدهم ، فقتلوا منها ما زاد على السبعين ألفاً ، فيهم جماعة من العلماء والعباد والزهاد . وهدموا المشاهد ، وجمعوا اليهود في الكنيس ، وأحرقوه عليهم .

هذا وملوك المسلمين ، مشغولون عن عدوهم بمنازعاتهم الشخصية ، —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

— وبحروبهم الداخلية ، وفيهم ، وفي ما كان من الخطب العظيم على البلاد يقول الآبيوردي من قصيدة طويلة :

مزجنا دماءً بالدموع السواجم ... فلم يبقَ منا عُرضة للمراحم
وشرُّ سِلاح المرء دمع يُفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايهاً بني الاسلام إن وراءكم ... وقائعَ يلحقن الأذى بالمناسم
أنهوءة في ظِل أمن وغِبطة ... وعيش كنوّار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين مِلءَ جفونها ... على هبوات أيقظت كل نائم
واخوانكم في الشام يضحي مَقيلهم ... ظهورَ المذاكي أو بطونَ القشاعم
تسومهم الروم الهَوانَ وأنتم ... تجرون ذيلَ الخفض فِعلَ المسالم

★ ★ ★

وتلك حروب من يَغِب عن غِمارها ... ليسلم ، يقرع بعدها سن نادم
أترضى صناديد الأعارب بالأذى ... ويُقضي على ذُلٍّ كُماة الأعاجم
فليتهم إذ لم يذودوا حميةً ... عن الدين ضنوا غَيرةً بالمحارم
وان زهدوا بالأجر إذ حمي الوغى ... فهلا أتَوه رَغبةً في الغنائم
دعوناكم والحربُ تزنو مُلِحةً ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارةً عربيةً ... تطيل عليها الروم عضَّ الأباهم

وجاء مودود صاحب الموصل بعسكر ليقاتل الفرنجة ، وبينما هو يصلي الجمعة في الجامع بدمشقَ وثب عليه باطني فقتله .

وزعموا أن ملك الفرنجة كتب إلى صاحب دمشق كتاباً فيه :

« ان أمة قتلت عيدها ، في يوم عيدها ، في بيت معبودها ، لحقيق على الله أن يبيدها » وهذا الكتاب المسجع .... ان لم يكن صدر عن ملك الفرنجة ، فهو وصف لواقع الحال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد أخلف الوعد بدر قد شُغفت به ... من بعد ما قد وفى دهري بما وعدا
ان كنت انقض عهد الحب يا سكني ... من بعد هذا فلا عاينته ابدا

وفي رواية :

« ان كنت انقض عهد الحب في خلدي »

وهي أبيات مقبولة من خليفة على كثرة ما فيها من « قد » .

* * *

المسترشد بالله العباسي (١) :

مولده سنة ٤٨٥ خلافته ٥١٢ (١١١٨ م) — مقتله ٥٢٣ (١١٣٥ م) .

من شعره لما أسره السلطان مسعود السلجوقي :

ولا عجبًا للأسد ان ظفرت بها ... كلاب الاعادي من فصيح وأعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردى ... وموت عليّ من حسام ابن ملجم

وله ، وقد كسر ، وأشير عليه بالهزيمة فلم يفعل وثبت حتى أسر .

قالوا تقيم وقد احاط بك العدو ولا تفر ؟!

---

(١) هو أبو منصور بن المفضل بن المسترشد .

قال فيه السيوطي : « كان ذا همة عالية ، وشهامة زائدة ، وإقدام ورأي ، وهيبة شديدة ، ضبط أمور الخلافة ، ورتبها أحسن ترتيب ، وأحيا رسم الخلافة ، ونشر عظامها ، وشيّد أركان الشريعة ، وطرّز أكمامها ، وباشر الحروب بنفسه . »

وذكره ابن الصلاح في طبقات الشافعية وناهيك بذلك فقال :

« هو الذي صنف له أبو بكر الشاشي كتاب العُمدة في الفقه ، وبلقبه اشتهر الكتاب . فانه كان حينئذ يُلقب عُمدة الدنيا والدين . » —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاجبتُهم : المرء ما لم يتعظ بالوعظ غِر
لا نِلتُ خيرًا ما حييـــت ولا عداني الدهرَ شر
ان كنت اعلم أن غير الله ينفع أو يضر

(له بقية) عارف النكدي

ـ وذكره ابن السبكي في طبقات الشافعية ، وقال : « كان في أول أمره تنسك ولبس الصوف وانفرد في بيت للعبادة .

وكان مليح الخط ، ما كتب أحد من الخلفاء قبله مثله . يستدرك على كُتّابه ، ويصلح أغاليطَ في كتبهم . »

وكانت أيامه مكدرة بكثرة التشويش والمخالفين . وكان يخرج بنفسه لدفع ذلك ، إلى أن وقع في أسر السلطان مسعود .

واكبَرَ أهلُ بغداد ذلك ، حتى قيل : إنهم مشَوا في الأسواق ، وحثوا التراب على رؤوسهم ، وبكَوا وضجوا ، وخرجت النساء حاسرات يندبن الخليفة . ومنعوا الصلوات والخطبة .

ووقعت زلازل يومئذ دامت أياماً . فكتب السلطان سنجر إلى ابن أخيه مسعود يقول :

« ساعةَ وقوف الولد غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب ، يدخل على أمير المؤمنين ، ويقبل الأرض بين يديه ، ويسأله العفو والصفح . ويتنصل غايةَ التنصل . فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية ، ما لا طاقة لنا بسَماع مثلها ، فضلًا عن المشاهد من العواصف والبروق والزلازل .... وتشويش العساكر ... وامتناع الناس من الصلاة في ـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ـــ الجوامع ... ومنع الخطباء . فالله الله تتلافى أمرك وتعيد أمير المؤمنين إلى مقر عزه ... »

غير أن سبعة عشر باطنياً من العسكر ، هجموا على الخليفة في خيمته ، فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ، ومثلوا به ، فجدعوا أنفه ، وأذنيه وتركوه عرياناً . وأطلقوا ما ظهر من الآيات السماوية والأرضية ... وقتلوا معه جماعة من أصحابه . قيل ان مسعوداً ما علم بهم ، وقيل بل علم ، وقيل بل هو الذي دسهم .

وفي المسترشد يقول وزيره : جلال الدين الحسن بن علي بن صدقة :

وجدت الورى كالماء طبعاً ورقةً وأن أمير المؤمنين زلاله
وصوّرت معنى العقل شخصاً مصوراً وأن أمير المؤمنين مثاله
ولولا مكانُ الدينِ والشرعِ والتُقى لقلت من الاعظام جل جلاله

ومن قول المسترشد :

« اللهم أصلحني في ذريتي ، وأعني على ما وليتني ، وأوزعني شكر نعمتك ، ووفقني وانصرني » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net